الفصل الرابع

شخصيتان متميزتان

١

تشابه وتميز :

رأينا أن صعاليك العرب سلكوا جميعاً أسلوباً واحداً فى الحياة ، آمنوا بأنه الأسلوب الوحيد الذى يستطيعون به أن يرفعوا عن كواهلهم ما وضعته فوقها ظروف مجتمعهم الجغرافية ، وتقاليده الاجتماعية ، وأوضاعه الاقتصادية ؛ من ضيم وهوان ، وهو ذلك الأسلوب الذى جعلنا شعاره « الغزو والإغارة للسلب والنهب » .

ورأينا أن صعاليك العرب جميعاً ، سواء منهم الخلعاء أو الأغربة أو الفقراء المتمردون ، قد تخلصوا من فكرة « العصبية القبلية » وشقوا طريقهم فى الحياة دون تقيد بقبائلهم ، أو رجوع إليها ، أو حرص على رضاها ، حتى أولئك الذين ظلوا على صلة بقبائلهم ، أو — بتعبير أدق — بمنازل قبائلهم ، لم تكن حركاتهم مرتبطة بالحياة الاجتماعية العامة فى قبائلهم .

ورأينا أن مرَد هذا إلى إحساس هؤلاء الصعاليك بأنهم مهضومو الحق ، مستضعفون فى الأرض ، وما نشأ عن هذا الإحساس بالضعة ، وعن هذه الرغبة فى التسامى ، من « مركب نقص » ، اتجه بهم إلى التمرد .

وليس من الطبيعى أن تكون كل شخصيات صعاليك العرب قد فنيتْ فى هذه « العصبية المذهبية » التى استعاضوا بها عن « العصبية القبلية » ، وإنما الطبيعى أنه برغم هذا التشابه فى جماعة الصعاليك، يوجد تميز بين شخصياتهم ، فقد رأينا أن أساس حركة الصعلكة قوة النفس ، وأن قوامها مقدرة الفرد على الوقوف فى وجه المجموع .

ومن الطبيعى تبعاً لهذا أن يختلف موقف الصعاليك من هذه الحركة التى وهبوا لها حياتهم . ونستطيع فى سهولة أن نلحظ شخصيتين متميزتين نرد إليهما جماعة الصعاليك : فهناك تلك الشخصية المتمردة التى رأت فى هذه الحركة فرصة سانحة تظهر فيها بطولتها الفردية ، وتستغلها إلى أبعد حد فى إرضاء ما فى نفسها من نزعة شريرة ، تصبغ حياتها كلها بلون من الدم الأحمر القانى محبب إليها ، لا يرضيها إلا أن ترى تلك الرءوس اليانعة ، رءوس الأغنياء المترفين ، تتطاير تحت ضربات سيوفها ، وذلك المال الذى يملكونه يُنهب . بل هى لا تبالى فى سبيل ذلك بأن توجه حركاتها المتمردة الشريرة ضد أية جماعة من الناس لا ترضى عنها . وإلى جانب هذه الشخصية التى رأت أن يكون تمردها الوسيلة والغاية معاً ، نرى شخصية أخرى رأت أن يكون تمردها وسيلة لغاية إنسانية معينة ، هى رفع الظلم عن المظلومين ، وحماية المستضعفين من ضيم السادة الأقوياء ، وتهيئة الفرصة للفقراء المهضومة حقوقهم ليشاركوا سائر أفراد مجتمعهم فى حياة اجتماعية كريمة عن طريق إحداث نوع من العدالة الاجتماعية والتوازن الاقتصادى الفطرى بين طبقتى هذا المجتمع الاقتصاديتين : طبقة المالة وطبقة الصعاليك ، بما تنهبه من الطبقة الأولى لتوزعه على الطبقة الأخرى .

وحين ننظر فى مجموعة صعاليك العرب نجد أن أشهرَ من يمثل هذه الشخصية الأخرى عروة بن الورد ، أبو الصعاليك ، الذى أخذ على عاتقه من الناحية الاجتماعية أن يحقق هذه العدالة الاجتماعية وهذا التوازن الاقتصادى ، ومن الناحية الفنية أن يقف موقف الداعية صاحب المذهب الذى يتخذ من شعره وسيلة للدعاية إلى مذهبه .

أما الشخصية الأولى فإن أفرادها أكثر من أن يحصَوا ، لأنها تمثل طائفة المتمردين من فتيان المجتمع الجاهلى ، وما أكثرهم ! ولعل الشنفرى من أصلح ممثلى هذه الشخصية للدراسة الاجتماعية ، نظراً لإمعانه فى التمرد والشر ، حتى ليذكر الرواة أنه آلى على نفسه ليقتلن مائة من بنى سلامان بسبب لطمة لطمتها له إحدى فتياتهم ، ولعله أصلح ممثلى هذه الشخصية للدراسة الفنية لأن له بين

أيدينا ديواناً مستقلا نستطيع أن نضعه فى الكفة الأخرى من الميزان أمام ديوان عروة :

٢

عروة بن الورد :

ينتهى نسب عروة إلى قبيلة عبس ، فهو عروة بن الورد بن زيد[١] بن عبد الله بن ناشب بن هُرَيِّم بن لُديم بن عوذ بن غالب بن قطيعة بن عبس[٢] ، فهو من هذه الناحية فى شرف من قبيلته ، ولكن أباه كانت عبس تتشاءم به ، لأنه هو الذى أوقع الحرب بينها وبين فزارة بمراهنته حذيفة[٣] .

أما أمه فليس فيما بين أيدينا من أخباره ما يشير إليها ، ولكن عروة نفسه قدكفانا مشقة البحث عنها ، فهو يذكر فى شعره أنها من نهد[٤] من قضاعة[٥] ، ولكن الشىء الذى يلفت النظر فى حديث عروة عن أمه أنه دائم السخط على هذه الصلة التى ربطت بين أبيه وأمه[٦] ، بل إنه يهجو أخواله هجاء مرًّا[٧] ، ولعل من أسباب هذا أن قبيلة نهد كانت أقل شرفاً من عبس[٨] ، أو ربما كانت هناك أسباب أخرى لم تصل إلينا أخبارها .

---

(١) وقيل ابن عمرو بن زيد (الأغانى ٣/٧٣) .

(٢) المصدر السابق : الصفحة نفسها . وفى شرح التبريزى على حماسة أبى تمام « عروة ابن الورد بن حابس بن زيد بن عبد الله بن ناشب بن سفيان بن هرم بن عوف بن غالب بن قطيعة ابن عبس » (٢ / ٨) وفى تاريخ اليعقوبى « عروة بن الورد بن زيد بن عبد الله بن ناشب بن سفيان ابن هرم بن عوف بن غالب بن قطيعة بن عبس » (١ / ٣٠٩) .

(٣) الأغانى ٣/٨٨ .

(٤) ديوانه /١٥٧ البيت الأول .

(٥) المبرد : رسالة عدنان وقحطان /٢٤ .

(٦) ديوانه /١٥٧ ، ١٥٨ .

(٧) المصدر السابق /١٥٧ .

(٨) The Ency of Islam; art. Urwa b. al-Ward.

ولعل هذا الإحساس الذى سيطر على نفس عروة بأن أمه أقل شرفاً من أبيه هو الذى جعله ينسب كل ما يحسه من عار إلى تلك الصلة التى تربطه بأخواله النهديين[١] .

ومعنى هذا أن عروة قد وضع منذ نشأته الأولى بين شقى الرحى ، فأبوه تتشاءم منه قبيلته ، وأمه من قبيلة أقل شرفاً .

وليس لدينا عن نشأة عروة الأولى سوى خبر واحد ، ولكنه قوى الدلالة على تلك الظروف الأولى التى جعلته يشعر بالظلم شعوراً قويًّا سيطر عليه فى كل مراحل حياته بعد ذلك ، كما أنه قوى الدلالة على قوة نفسه التى بدأت براعمها فى الظهور منذ وقت مبكر . فى الأخبار أنه كان له أخ أكبر منه وكان أبوه يؤثره عليه فيما يعطيه ويقربه ، « فقيل له : أتؤثر الأكبر مع غناه عنك على الأصغر مع ضعفه ؟ قال : أترون هذا الأصغر ؟ لئن بقى مع ما أرى من شدة نفسه ليصيرن الأكبر عيالا عليه »[٢] .

ومعنى هذا أن عروة تفتحت عيناه فى الحياة على صورة مختلة التوازن من صورها : صورة الأخ الأكبر الذى يؤثره أبوه مع غناه عنه ، وإلى جانبها صورة الأخ الأصغر الذى يهمله أبوه مع ضعفه وحاجته إليه . أليست هذه الصورة هى التى شاهدها عروة بعد ذلك فى المجتمع الذى يعيش فيه فى مجال أوسع : الأغنياء الذين تؤثرهم الحياة بكل شىء مع غناهم ، وإلى جانبهم الفقراء الذين تحرمهم الحياة من كل شىء مع شدة حاجتهم وضعفهم ؟

وهكذا بدأت براعم فلسفة عروة الاجتماعية والاقتصادية فى الظهور فى هذه السن المبكرة .

وما إن تتقدم الأيام بعروة حتى تتفتح هذه البراعم عن فلسفة ناضجة ، يؤمن بها كل الإيمان ، ثم يأخذ فى تنفيذها والدعوة إليها بكل قوة وحماسة .

---

(١) وما بى من عار إخال علمته سوى أن أخوالى إذا نسبوا نهد
(ديوانه / ١٥٧) .

(٢) الأغانى ٣ / ٨٨ .

ومن الطبيعى أن تجد دعوته آذاناً صاغية ، وقلوباً مؤمنة ، وأنصاراً مخلصين بين أولئك الفقراء المستضعفين الذين أجهدهم الفقر وأهزلهم الجوع ، وأذلّهم الأوضاع الاجتماعية ، وسدت الحياة فى وجوههم سبل العيش الحر الكريم ، فالتفت حوله طوائف من الصعاليك ، يخرج بأقوياتهم فيغير ، ثم يوزع الغنائم على من أغار بهم ، وعلى من تخلف عنه من المرضى والضعفاء أيضاً ، فربما عاد كل منهم إلى أهله وقد استغنى [١] .

وقد عرف الصعاليك فى عروة هذه النفس الإنسانية القوية فكانوا إذا أصابتهم السنة أتوه « فجلسوا أمام بيته حتى إذا بصروا به صرخوا وقالوا : يا أبا الصعاليك ، أغثنا » فيخرج ليغزو بهم [٢] .

وقد عرف عروة لهذه « الأبوة » — على حد تعبير هؤلاء الصعاليك الذين كان يسميهم « عياله » [٣] — أو لهذه « الزعامة » — كما يصح أن نطلق عليها — حقوقها . فلم يكن يؤثر نفسه بشىء على صعاليكه ، وإنما « كان صعلوكاً فقيراً مثلهم » [٤] ، وفى بعض غاراته ، وهو مع قوم من هُلاّك عشيرته فى شتاء شديد ، قيض الله له رجلا « صاحب مائة من الإبل قد فر بها من حقوق قومه » فقتله وأخذ إبله ثم أقبل بالإبل يقسمها بين صعاليكه ، وأخذ مثل نصيب أحدهم [٥] .

وعرف هذا « الزعيم الشعبى » « نفسية جماهيره » فكان يقبل منهم أحياناً التواءهم عليه إذا ما تحسنت حالتهم ، لأنه يعرف أنهم « كما الناس » على حد تعبيره [٦] ، ولأنه يدرك أنهم « صنيعته » ، ولو أنه عاملهم كما يعاملونه لأفسد

---

(١) انظر الأغانى ٣/٧٨ ، ٧٩ ، والتبريزى : شرح حماسة أبى تمام ٢/٩ .
(٢) الأغانى ٣/٨١ .
(٣) ديوانه /٩٩ ، وحماسة أبى تمام ٢/٧ البيت الأخير .
(٤) التبريزى : شرح حماسة أبى تمام ٢/٩ .
(٥) الأغانى ٣/٧٩ ، وانظر التبريزى : شرح حماسة أبى تمام ٢/٩ وابن السكيت : شرح ديوان عروة /١١٢ .
(٦) ديوانه /١١٣ البيت الأول ، وشرح التبريزى على حماسة أبى تمام ٢/٩ .

ما يصنع ، ولانفضت الجماهير من حوله ، وهو حريص عليهم لأنه حريص على تنفيذ مذهبه فى الحياة . فنى أخباره أنه غنم فى بعض غزواته إبلا وامرأة ، فلما أخذ فى قسمة الإبل بين صعاليكه أخذ مثل نصيب أحدهم واستخلص المرأة لنفسه ، « فقالوا : لا واللات والعزى لا نرضى حتى تجعل المرأة نصيباً ، فمن شاء أخذها ، فجعل يهم بأن يحمل عليهم فيقتلهم وينتزع الإبل منهم ، ثم يذكر أنهم صنيعته ، وأنه إن فعل ذلك أفسد ما كان يصنع ، فأفكر طويلا ، ثم أجابهم إلى أن يرد عليهم الإبل إلا راحلة يحمل عليها المرأة حتى يلحق بأهله ، فأبوا ذلك عليه ، حتى انتدب رجلٌ منهم فجعل له راحلة من نصيبه »[1].

وهو إلى جانب هذه « الزعامة » الحكيمة « قائدٌ » موفق يخرج « بجنوده » ويرسم لهم الخطط الدقيقة التى تضمن لهم الفوز . فنى أخباره أنه خرج بصعاليكه إلى أرض بنى القين ، فهبط أرضاً ذات حجارة كبيرة فيها ماء ، فرأى عليه آثاراً « فقال : هذه آثار منْ يردُ هذا الماء فاكمنوا . فأحْرِ أنْ يكون قد جاءكم رزق » ، فأقاموا يوماً « ثم ورد عليهم فصيلٌ ، فقالوا : دعنا فلنأخذه فلنأكل منه يوماً أو يومين ، فقال : إنكم إذن تنفرون أهله ، وإن بعده إبلا ، فتركوه فندموا وجعلوا يلومون عروة من الجوع الذى جهدهم ، ووردت إبل بعده بخمس فيها ظعينة ورجل معه السيف والرمح ، والإبل مائة متال ، فخرج إليه عروة ، فرماه فى ظهره بسهم أخرجه من صدره فخر ميتاً ، واستاق عروة الإبل والظعينة حتى أتى قومه »[2] . أرأيت إلى هذه القيادة الموفقة كيف تتخير المكان والزمان ، وكيف تحكم الخطة ولا تتعجل تنفيذها حتى تحين الفرصة المناسبة ؟

ومن مظاهر هذه القيادة الموفقة الحذرُ ، فقد كان عروة إذا نزل بصعاليكه

---

(١) الأغانى ٣/٧٩ ، ٨٠ . وانظر أيضاً شرح ابن السكيت على ديوانه /١١٢ . وشرح التبريزى على حماسة أبى تمام ٢/٩ .

(٢) شرح ابن السكيت على ديوانه /١٠٣ ، ١٠٤ . وشرح التبريزى على حماسة أبى تمام ٢/٨ .

فى موطن من مواطن الخوف أخذ للأمر عدته فبعث أحد صعاليكه فوق مرقبة عالية يرقب لهم الطريق ، بينما يشتغل الباقون فى تهيئة طعام الجماعة أو فى غير ذلك من الأعمال[١] .

وقد رأينا فى تفسيرنا الجغرافى لظاهرة الصعلكة أن حركات عروة وصعاليكه قد تركزت فى شمالى الجزيرة العربية حول منطقة يثرب ، وأنها كانت تمتد إلى منطقة نجد أحياناً ، ومن هنا نشأت طائفة من الصلات الاقتصادية بينه وبين بنى النضير الذين كانوا ينزلون فى تلك المنطقة فكانوا « يقرضونه إن احتاج ويبايعهم إذا غنم»[٢] .

هكذا سلك عروة سبيله فى الحياة ، يسلب الأغنياء أموالهم ليوزعها على الفقراء ، وفقاً لفلسفة معينة عبر عنها فى شعره أصدق تعبير ، حتى أصبح شعره نبراساً يهتدى به قومه ، أو يأتمون به — على حد تعبير الحطيئة فى حديثه مع عمر بن الخطاب[٣] .

وأساس فلسفة عروة أن « الغزو والإغارة للسلب والنهب » السبيل الوحيد للغنى لمن هو فى مثل حالته :

ومن يلكُ مثلى ذا عيال ومُقْترا من المال يطرَحْ نفسه كلَّ مَطْرح[٤]
وما صاحبُ الحاجات من كل وجهة من الناس إلا من أَجدَّ وشمَّرا[٥]

وليس وراء ذلك سوى إحدى نتائج ثلاث : نجاح الغزوة أو إخفاقها أو الموت فى سبيلها ، أما إن كانت الأولى فقد حقق أهدافه وجاء الغنى معها ، وأما إن كانت الثانية فقد أبلغَ نفسه عذْرها ، « ومبلغُ نفس عذْرَها مثل منجح » ، وأما إن كانت الثالثة فالموت خير من حياة الفقر والجوع والذل والهوان :

---

(١) انظر أبياته التى يرسم فيها هذه الصورة فى ديوانه /١١١ ، ١١٢ .
(٢) الأغانى ٣/٧٦ .
(٣) المصدر السابق /٧٤ .
(٤) ديوانه /٩٩ . وحماسة أبى تمام ٢/٧ .
(٥) ديوانه /١٩١ .

ذريني أطوّفْ فى البلاد لعلنى ... أخليك أو أغنيك عن سوء مَحْضر
فإن فاز سهمٌ للمنية لم أكن ... جزُوعاً وهل عن ذاك من متأخّرِ
وإن فاز سهمى كفكم عن مقاعد ... لكم خلفَ أدبار البيوت ومنظر[1]
أقيموا بنى لبنى صدورَ ركابكم ... فإن منايا القوم خيرٌ من الهزل[2]
فقلت له ألا احىَ وأنتَ حرٌّ ... ستشبع فى حياتكَ أو تموت[3]
فسرْ فى بلاد الله والتمس الغنى ... تعشْ ذا يسار أو تموتَ فتُعذَرا[4]

وهو يتمنى أن يصادف فى أثناء انطلاقه هو وصعاليكه فى البلاد غازين مغيرين بعض أولئك الأغنياء أصحاب الإبل الكثيرة الذين يحرصون على مالهم بالبخل والعقوق ، عقوق أفراد مجتمعهم الفقراء ، حتى يستردوا منهم بعض حقوقهم عليهم :

لعل انطلاقى فى البلاد ورحلتى ... وشدّى حيازيمَ المطية بالرَّحْل
سيدفعنى يوماً إلى رَبِ هَجْمة ... يدَافعُ عنها بالعقوق وبالبخل[5]

ويعلل عروة لمغامراته بكثرة أضيافه وقلة ماله ، فماذا يفعل سوى أن يغامر فى سبيل الغنى حتى يهيئ لنفسه شيئاً يقدمه لهم ، فيحقق حسن ظنهم فيه ، ويرضى نفسه الطموح إلى حسن الأحدوثة وطيب الذكر ؟

يريحُ علىَّ الليلُ أضيافَ ماجد ... كريم ، ومالى سارحاً مالُ مقْتر[6]

ويتساءل : أيهلك أفراد من المجتمع لفقرهم وجوعهم فى حين يعيش إخوان لهم مترفين متخمين ، وهو قاعد لا يفعل شيئاً ، وهو الذى باع روحه للموت فى مخاطراته ومغامراته ؟

أيهلكُ معمٌّ وزيدٌ ولم أقم ... على نَدَب يوماً ولى نفسُ مخطر[7]

(١) ديوانه /٦٦ ، ٦٧ . وجمهرة أشعار العرب /١١٤ . والأصمعيات /٢٩ .
(٢) ديوانه /١٠٦ .
(٣) ديوانه /١٦٦ .
(٤) ديوانه /١٩١ .
(٥) ديوانه /١٠٨ ، ١٠٩ . وحماسة أبى تمام /٩٢ .
(٦) ديوانه /٨٥ . والأصمعيات /٣٠ .
(٧) ديوانه /٨٣ . والأصمعيات /٣٠ .

والغاية التى يريد أن يصل إليها — بطبيعة الحال — الغنى ، ولكنه لا يريد الغنى من حيث هو غاية يقف عندها ، وإنما يريده ليكون وسيلته للارتفاع بمنزلته الاجتماعية بين أفراد مجتمعه ، من حيث إنه يهيئ له الفرصة التى يشارك فيها السادة الأغنياء فى البذل والكرم واكتساب المحامد والمفاخر :

دعينى أطوّفْ فى البلاد لعلنى ... أفيدُ غنى فيه لذى الحق محملُ
أليس عظيماً أن تلِمَّ ملمةٌ ... وليس علينا فى الحقوق مُعوَّل
فإن نحن لم نملك دفاعاً بحادث ... تُلِمُّ به الأيام فالموتُ أجمل[1]

والفقير فى رأيه شر الناس ، وأحقرهم عندهم ، وأهونهم عليهم مهما يكن له من فضل ، يجافيه أهله ، وتزدريه امرأته ، حتى الصغير يستطيع أن يذله ، أما الغنى فمهما يفعل يقبل منه ، ومهما يخطئ يغفر له ، فللغنى رب يغفر الذنوب جميعاً :

ذَرينى للغنى أسعى ، فإنى ... رأيتُ الناس شرُّهم الفقير
وأدْناهم ، وأهـونهم عليهم ... وإنْ أمسَى له حسبٌ وخِيرُ
يباعده القريبُ ، وتزدريه ... حليلتـه ، ويقهره الصغيرُ
ويُلقى ذو الغنى ، وله جلال ... يكادُ فؤاد لاقيـه يطيرُ
قليل ذنبهُ ، والذنبُ جمٌّ ... ولكنْ للغنى ربٌّ غفور[2]

هكذا يسجل أبو الصعاليك فلسفته فى هذه المشكلة الاجتماعية الخطرة ، مشكلة الفقر والغنى ، فى هذا الأسلوب الممتاز الذى يستمد امتيازه من عنصرين أساسيين هما السخرية والبساطة : السخرية من ذلك المجتمع العجيب الذى يحتقر الفقير لا لشىء إلا لأنه فقير ، ويقدر الغنى لا لشىء إلا لأنه غنى ، والذى لا يهتم بغير المظاهر المادية ، أما جوهر النفس الكامن خلف هذه المظاهر فأمر وراء اهتمامه ، ثم البساطة التى نلمسها فى عرض الشاعر لمعانيه ذلك العرض

---

(١) ديوانه /٢٠٦ .

(٢) ديوانه /١٩٨ ، ١٩٩ . وابن قتيبة : عيون الأخبار ١/٢٤١ ، ٢٤٢ . وابن عبد ربه : العقد الفريد ٣/٢٩ .

السهل الذى لا يقبل معارضة ، أو يثير جدلا ، والذى ينفذ إلى النفس من أقرب السبل ، ذلك العرض الذى يصح أن نطلق عليه « عرضاً شعبيا » ، حتى لنسمع أن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب يطلب إلى معلم أولاده ألا يروّيهم هذه القصيدة ، ويقول له : « إن هذا يدعوهم إلى الاغتراب عن أوطانهم »[1] .

وأسوأ طوائف الصعاليك عند عروة هم أولئك الصعاليك الذين يقضون حياتهم فى خمول وهوان وتخاذل ، وقعود عن طلب الغنى ، وخدمة لنساء الحى المترفات :

لحا الله صُعلوكاً إذا جَنَّ ليله ... مصَافِى المشاش آلفاً كلَّ مجزَر
يعُدُّ الغنى من دهره كل ليلة ... أصابَ قراها من صديق ميسر
ينام عشاء ثم يصبح طاوياً ... يحُت الحَصى عن جنبه المتعفر
قليلُ التماس الزاد إلا لنفسه ... إذا هو أمسى كالعريش المجوَّر
يعين نساءَ الحى ما يَسْتعنَّه ... فيمسى طليحاً كالبعير المحسَّر[2]

أما أولئك الصعاليك العاملون الذين يقضون حياتهم فى العمل والكفاح والمغامرة فإن عروة معجب بهم إعجاباً شديداً ، لأنهم الذين آمنوا بمذهبه فى الحياة ، وسلكوا سبيله فيها ، فهو لهذا يكيل لهم مدحه ويضفى عليهم ثناءه :

ولكن صعلوكاً صَحيفـــة وجهه ... كضوء شهَاب القابس المتنوِّر
مطلا على أعدائه يزجـــرونه ... بساحتهم زَجْرَ المنيح المشهَّر
فإنْ بعدوا لا يأمنون اقترابه ... تشوُّفَ أهل الغائب المتنظَّر
فذلك إنْ يلق المنية يلقها ... حميدًا وإن يستغن يوماً فأَجدِرِ[3]

هكذا كان أبو الصعاليك ينادى بمذهبه فى أرجاء المجتمع الجاهلى . وليس

---

(١) الأغانى ٣/٧٥ .
(٢) ديوانه /٧٣ – ٧٧ .
(٣) ديوانه /٧٨ – ٨٢ .

من شك فى أندعوة عروة هذه قد لقيت إعجاباً من هذا المجتمع ظلت أصداؤه مدوية حتى بعد ظهور الإسلام فى البلاط الأموى نفسه، حتى لنسمع معاوية يقول « لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببتُ أن أتزوج إليهم »[١]، وحتى ليستأذن بعض الناس عليه ويقول لآذنه : استأذن لى على أمير المؤمنين وقل ابن مانع الضيم ، فيقول معاوية : ويحك لا يكون هذا إلا ابن عروة بن الورد العبسى أو الحُصَين بن الحُمام المرى [٢] ، وحتى ليقول عبد الملك : من زعم أن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد[٣] .

وأخص ما يتميز به أسلوب عروة فى شعره أنه « أسلوب شعبى » ، فهو سهل اللفظ بالقياس إلى شعر سائر الصعاليك ، واضح المعنى ، قريب التعبير ، لا تكلف فيه ولا تصنع . وقد يكون هذا طبيعيًّا بعد أن قررنا أن عروة كان يقوم فى حركة الصعلكة بالداعية المذهبى أو الزعيم الشعبى الذى يحرص على استمالة الجماهير إليه .

ولعل عروة أكثر الشعراء الصعاليك استخداماً لتلك المقدمات النسائية التى اصطلحنا على تسميتها « مقدمات الفروسية فى شعر الصعاليك » . وهذا أيضاً طبيعى فإن أخبار عروة مع نسائه السبايا تدل على احترام متغلغل فى نفسه للمرأة ، ورواة الأدب العربى يصفونه بأنه كان لا يمس النساء[٤] .

٣

الشَّنْفَرى :

إذا كان عروة يمثل الجانب الإنسانى فى حركة صعاليك العرب ، فإن الشنفرى — ولا شك — يمثل الجانب الشيطانى فيها .

واسم الشنفرى ، ونسبه ، ونشأته الأولى ، غامضة كل الغموض ، فكل

---

(١) الأغانى ٣/٧٣ .
(٢) الأغانى ١٢/١٢٣ (بولاق) .
(٣) الأغانى ٣/٧٤ .
(٤) الأغانى ٣/٧٥ .

ما يعرّف عن الجانبين الأولين أنه الشنفرى ، وأنه كان من الإوّاس بن الحِجْر ابن الهنْو بن الأزد[١] ، وأن أباه كان فى موضع من أهله ولكنه كان فى قلة[٢] ، وأن أمه كانت سبية[٣] .

والشنفرى أحد أولئك الأغربة الذين رأينا أنهم كانوا يمدون حركة الصعلكة بجماعات كبيرة من الصعاليك ، ويضعه صاحب لسان العرب نقلا عن ابن سيده عن ابن الأعرابى بين « أغربة العرب »[٤] ، وكذلك يفعل صاحب تاج العروس نقلا عن التهذيب والمحكم ولسان العرب[٥] ، ويضعه ابن الأعرابى فى نوادره بين أغربة الجاهلية[٦] ، والشنفرى نفسه يصرح فى بعض شعره بأنه « هجين »[٧] .

ولكن يبدو أن الشنفرى يأبى إلا أن يوقعنا فى إشكال غامض ، فإنه بعد بيت واحد من تصريحه هذا يعود فيصرح بأن أمه «ابنة الأحرار »[٨] ، وهنا نقف لنتساءل : كيف يتفق التصريحان وبينهما هذا التناقض الظاهر ؟ ونعود إلى أخبار الشنفرى فى مصادرها المختلفة نسألها الإجابة عن هذا التساؤل ، ولكنا لا نظفر مع الأسف بشىء ، فإن رواة أخباره لم يقفوا عند هذا التناقض ، ولم يقدموا لنا الوسائل التى تعيننا على هذه الإجابة ، لأنهم لم يذكروا شيئاً له قيمة عن أسرة الشنفرى ، لا عن أبيه ولا عن أمه ، حتى ليلاحظ الأستاذ

---

(١) كذا فى الأغانى ٢١/١٣٤ ، والذى فى خزانة الأدب للبغدادى (٢/١٦) الأواس بفتح الهمزة ، والحجر بفتح الحاء المهملة وسكون الجيم ، والهنء بتثليث الهاء وسكون النون وبعدها همزة ، وهو الذى فى ديوانه المطبوع /٢٧ .

(٢) ابن الأنبارى : شرح المفضليات /١٩٨ .

(٣) المصدر السابق /١٩٥ .

(٤) انظر مادة (غرب) .

(٥) مادة « غرب » . ولكن الغريب أن يذكره هذان المصدران بين الأغربة الإسلاميين وهو خطأ فاحش ، فكل مصادر حياة الشنفرى صريحة فى أنه جاهلى ، والأغرب من هذا أن ينقل ناشرو « الأغانى » بدار الكتب المصرية نص التاج فى أحد هوامشهم (٨/٢٤٠) دون أية إشارة إلى ما فيه من خطأ .

(٦) السيوطى : المزهر ٢/٢٦٩ .

(٧) الأغانى جـ ٢١ ص ١٣٤ س ٢٠ .

(٨) المصدر السابق ص ١٣٤ س ٢٢ .

Lyall أن « أصل الشنفرى ونسبه مسألتان شديدتا الغموض »[١] . والواقع أن أخبار الشنفرى كلها قليلة ومضطربة حتى ليعارض رُواتها بعضهم بعضاً ، ومن هنا ترددت كلمة « لا » النافية فى أول كل خبر منها[٢] . ومن الحق ما يذكره Lyall من أن القصص التى تروَى حول الشنفرى لا تتفق دائماً مع قصائده ، وإنما هى أقرب إلى أن تكون صورة من الأساطير الشعبية التى كثرت حول أبطال العصر الجاهلى من أن تكون أخباراً حقيقية[٣] .

ومع ذلك فلابد من محاولة للإجابة عن هذا التساؤل .

يرى Fresnel أنه من المحتمل أن تكون أم الشنفرى مولودة من أب حر وأم أمة ، وبهذا يكون الشنفرى من أولئك الذين يطلقون عليهم فى الولايات الأمريكية اسم Quarteron[٤] . ولكن هذا الرأى لا يعدو أن يكون فرضاً ، وصاحبه يصرّح بأنه شىء من الممكن أن يفترض[٥] ، وهكذا تظل المشكلة قائمة ، ويظل السؤال وارداً .

أما أنا فيبدو لى أن المسألة أيسر من هذا ، وأنها لا تحتاج إلى تكلف مثل هذا الفرض الاحتمالى ، وأن وصف الشنفرى لأمه بأنها « ابنة الأحرار » لا يعدو أن يكون تعبيراً عاطفياً يتلاءم مع ذلك الجو العاطفى الشديد الحساسية الذى قيلت فيه الأبيات[٦] ، فهو صرخة من نفس الشنفرى الحساسة فى وجه ابنة سيده المتعجرفة ، يعلن لها فيها أن العبودية وضع اجتماعى خاطئ لا يعترف به ، لأن الله لم يخلق الناس عبيداً ، وأنه إذا كانت الأوضاع الظالمة قد جعلت

---

(١) The Mufaddaliyat, Vol. II (Translation and Notes), p. 73 (n. 28), Oxford, 1918.

(٢) الأغانى ٢١/١٣٧ — ١٤٢ .

(٣) The Mufaddaliyat, Vol. II (Translation and Notes), p. 68.

(٤) Fulgence Fresnel; Lettres sur l'Histoire des Arabes avant l'Islamisme, (1re lettre) ; p, 93,

والكلمة معناها من أبوه أبيض وأمه من أبوين أحدهما أبيض والآخر أسود أى أن فيه الربع من دم زنجى .

(٥) Ibid. ; p. 93.

(٦) الأغانى ٢١/١٣٤ ، ١٤٢ .

من أمه أمةً فإن هذا لا يغير من الوَضْع الإلهى الذى خلقها الله عليه ، فهى ابنة أحرار قبل أن تكون أمةً ، ولو أن هذه الفتاة المتعجرفة عرفت أصلها لعرفت أنها ابنة أحرار مثلها ، ولهذا يعقب على قوله « وأمى ابنةُ الأحرار » بقوله « لو تعرفينها » ، فكأنه يقول لها ذلك القول الذى قاله عمر بن الخطاب لعمرو ابن العاص فيما بعد : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ وكأن المسألة عنده مسألة نسبية ، فإذا كانت هذه الفتاة ترى أمه أمةً فإنه يراها ابنة أحرار .

ومع ذلك فما زال فى المشكلة جانب يحتاج إلى تفسير ، وهو قول الشنفرى بعد ذلك :

إذا ما أَرُومُ الودَّ بينى وبينها يؤُم بياضَ الوجه منى يمينُها[1]

والذى يبدو لى أن وصف الشنفرى لوجهه بالبياض إما أن يكون على طريقة العرب فى التعبير عن اللديغ بالسليم ، وإما أن يكون لوناً من السخرية من اهتمام هؤلاء السادة بمسألة اللون . ومع ذلك فهذا البيت لم يرد إلا فى رواية واحدة من روايات الأغانى المتعددة عن هذه القصة ، وهى رواية مجهولة الراوية ، فيها بعض تفصيلات غير معقولة[2] .

ومهما يكن من أمر فإن لفظة « الشنفرى » تحمل فى طياتها دليلا على أصل هذا الشاعر ، فمن معانى هذه اللفظة الرجل الغليظ الشفتين[3] ، وغلظ الشفتين — كما هو معروف ، وكما يقرر علماء الأجناس — من سمات الجنس الأسود . ويجعل Fresnel هذه الظاهرة من أدلته على أنه « من المؤكد أن أم الشنفرى كانت أمةً سوداء أو من دم مختلط »[4] ، كما يجعلها Lyall دليلا

---

(١) الأغانى ٢١/١٤٢ .

(٢) انظر المصدر نفسه الصفحة نفسها .

(٣) الزمخشرى : أعجب العجب فى شرح لامية العرب/١١ ، والبغدادى : خزانة الأدب ٢/١٦ .

(٤) Lettres sur l'Histoire des Arabes avant l'Islamisme, (1re. lettre), p. 93.

على أنه « من المرجح أن دماً إفريقيًّا زنجيًّا أوحبشيًّا كان يجرى فى عروقه »[١].

أما عن بدء تصعلكه فإنه غامض كل الغموض ، وتروى عنه ثلاث روايات : إحداها عن محمد بن هشام المرى بسنده وتذكر أن الشنفرى أسرته بنوشبابة بن فهم فلم يزل فيهم حتى أسرت بنو سلامان بن مُفْرِج[٢] من الأزد رجلا من بنى شبابة ، ففدته بنو شبابة بالشنفرى ، فكان الشنفرى فى بنى سلامان لا تحسبه إلا أحدهم حتى نازعته بنتُ الرجل الذى كان فى حجره ، وكان السلامى اتخذه وَلداً ، فقال لها الشنفرى : اغسلى رأسى يا أخية ، فأنكرت أن يكون أخاها ولطمته ، فذهب مغاضباً حتى أتى الذى اشتراه من فهم ، فقال له : اصدقنى ممن أنا ؟ قال : أنت من الإواس بن الحجر ، فقال : أما إنى لن أدعكم حتى أقتل منكم مائة بما استعبدتمونى[٣] .

وأما الثانية فعن راوية مجهول يكذب فيها هذه الرواية ويقول إن الأزد قتلت الحارث بن السائب الفهمى ، فأبوا أن يبوءوا بقتله ، فباء بقتله رجل منهم يقال له حَرام بن جابر ، فلما ترعرع الشنفرى جعل يغير على الأزد مع فهم[٤] .

وأما الثالثة فعن راوية مجهول أيضاً يكذب فيها هاتين الروايتين ، ويقول : بل كان من سبب أمر الشنفرى أن بنى سلامان بن مفرج سبتْ الشنفرى وهو غلام ، فجعله الذى سباه فى بَهْمة يرعاها مع ابنة له ، فلما خلا بها ذهب ليقبلها ، فصكت وجهه ، ثم سعت إلى أبيها فأخبرته ، فخرج إليه ليقتله ، فوجده ينشد أبياتاً يأسف فيها على أن هذه الفتاة لا تعرف نسبه ، فلما سمع الرجل قوله سأله : ممن هو ؟ فقال : أنا الشنفرى أخو بنى الحارث بن ربيعة ، فقال له : : لولا أنى أخاف أن يقتلنى بنو سلامان لأنكحتك ابنتى ، فقال :

---

(١) The Mufaddaliyat, Vol. II, p. 68.

(٢) ضبطت فى هذا الموضع بتشديد الراء ، ولكن الذى فى شعره « مفرج » بتخفيفها وكسرها (انظر بيته رقم ٢٨ من تائيته فى المفضليات / ٢٠٥ وفى الأغانى ٢١ / ١٤٠) وهو الصواب (انظر القاموس المحيط : مادة فرج) .

(٣) الأغانى ٢١ / ١٣٤ .

(٤) المصدر السابق / ١٣٧ — وباء بقتله أى أقر واعترف به .

علىَّ إن قتلوك أن أقتل منهم مائة رجل بك ، فأنكحه ابنته ، وخلى سبيله ، فسار بها إلى قومه، فشدت بنو سلامان خلافه على الرجل فقتلوه ، ثم أخذ يوفى بوعده للرجل فيغزو بنى سلامان ويقتلهم[١] .

ويروى ابن الأنبارى عن نشأته الأولى ثلاث روايات : اثنتين عن مؤرِّج ، إحداهما تلك التى يرويها صاحب الأغانى عن النمرى ، والأخرى يقول فيها : ويقال إن السبب فى غزو الشنفرى الأزد وقتلهم أن رجلا منهم وثب على أبيه فقتله ، والشنفرى صغير ، وكان أبوه فى موضع من أهله ولكنه كان فى قلة ، فلما رأت أم الشنفرى أن ليس يطلب بدمه أحدٌ ارتحلت به وبأخ له أصغر منه حتى جاورت فى فهم ، فلم تزل فيهم حتى كبر الشنفرى ، فجعلت تبدو منه عَرَامة ، وجعل يُكره جانبه ، فوقع فى نفس تأبطشرا ، فكان يكرمه ويدنيه ، وكان يغير مع تأبط شرا حتى صار لا يقام لسبيله[٢] .

والرواية الثالثة عن راوية مجهول ، يقول فيها إن الأزد قتلتْ رجلا من فهم فى خُفرَة رجل يقال له الحارث بن السائب الفهمى ، فرَهنوُهم الشنفرى وأمه وأخاه ، وأسلموهم ولم يفدوهم ، فنشأ فيهم الشنفرى، فكان شديد البأس والنفس وكان أشد فهم على الأزد قتلا وسلباً[٣] .

ومهما يكن من أمر هذه الروايات المتناقضة المضطربة فإن المسألة فى أبسط صورها ترجع إلى أن الشنفرى لسبب من الأسباب فقدَ توافقه الاجتماعى مع قبيلته الأزد ، ثم انتقل إلى قبيلة فهم ، تلك القبيلة المتمردة المشهورة بلصوصها[٤] ، وهناك اتصل به تأبط شرا ، ووجد فيه تلميذاً ممتازاً ، فلقنه دروس الصعلكة الأولى حتى صار لا يقام لسبيله ، ورأى الشنفرى أن فرصة الانتقام من قبيلته الأزد قد سنحت له فصب عليها كل غزواته .

---

(١) المصدر نفسه /١٤٢ .
(٢) ابن الأنبارى : شرح المفضليات /١٩٦ ، وأيضاً /١٩٨ .
(٣) المصدر السابق /١٩٧ ، ١٩٨ .
(٤) The Ency. of Islam; art. al-Shanfara.

ولعل أقربَ هذه الروايات إلى الحقيقة، وأبعدها عن أوهام الرواة، الروايةُ الثانية التى يرويها ابن الأنبارى عن مؤرّج، والتى تتحدث عن قتل الأزد أباه. والشنفرى نفسه فى بعض شعره يصرح بأن قومه قد أضاعوا أباه[١]، وفى أخباره أنه «قدمَ مِنًى وبها حرّام بن جابر فقيل له: هذا قاتل أبيك، فشد عليه فقتله»[٢]، وهو يصرح بهذا فى تائيته المفضلية[٣].

وأيًّا ما كانت الأسباب لهذا الحقد الذى ملأ نفس الشنفرى على بنى سلامان فإنه قد وهب حياته للانتقام منهم، «فكان يغير على الأزد على رجليه فيمن معه من فهم، وكان يغير عليهم وحده أكثر ذلك»[٤].

وبلغت الرغبة فى الانتقام فى نفس الشنفرى حدًّا جعله يحرص على التفنن فيه، فكان يصنع النبل ويجعل أفواقها من القرون والعظام، فإذا غزاهم عرفوا نبله بأفواقها فى قتلاهم[٥]، وكان إذا رمى رجلا منهم قال له تحدياً: أأطرفك؟ ثم يرمى عينه[٦].

ويقتل الشنفرى منهم — فيما تزعم الروايات — تسعة وتسعين، ثم يتربص به أعداؤه، ثم يقتلونه بعد أن يتفننوا فى تعذيبه تفنناً قاسياً، ثم يمر رجل منهم بجمجمته فيضربها فتعقره فيموت، وتم به المائة الذين كانت حَلَفَة الشنفرى عليهم[٧].

---

(١) أضمّ أبى إذ مـال شق وسـاده على جنف، قد مال من لم يوسد
(ابن الأنبارى: شرح المفضليات /١٩٨ — وديوانه المطبوع /٣٥).
(٢) الأغانى ٢١/١٣٧.
(٣) قتلنـا حـراما مهدياً بملبـد ببطن منى وسط الحجيج المصوت
(المصدر السابق: الصفحة نفسها، وانظر المفضليات /٢٠٥).
(٤) الأغانى ٢١/١٣٥.
(٥) المصدر السابق /١٤٢.
(٦) المصدر نفسه /١٣٦. وابن الأنبارى: شرح المفضليات /١٩٦.
(٧) انظر المصدرين السابقين: الأغانى /١٣٥ — ١٣٦، ١٣٧ — ١٣٨، ١٤٢ — ١٤٣، وابن الأنبارى /١٩٦ — ١٩٩. وانظر أيضاً ابن حبيب: المغتالين (مصورة) لوحة رقم ٩٣ — ٩٤.

ويدور الجزء الأكبر من شعر الشنفرى حول هذا الصراع بينه وبين بنى سلامان ، والجزء الباقى منه حول أحاديث تصعلكه وفقره وتشرده وغاراته على غير بنى سلامان .

ويساير هذا الشعر حياة الشنفرى منذ طفولته ، فهم يروون له بيتين يخاطب بهما أمه بعد مقتل أبيهوموت أخيه[١] ، تظهر فيهما قوة نفسهوبراعم تمرده الأولى .

فإذا ما لطمتهالفتاة السلامية سجل هذه الحادثة البعيدة الأثر فى حياته ، وسجل أسفه لأن هذه الفتاة المغرورة لا تعرف شيئاً عن نسب أبيه وأمه، ثم يتحدث إليها عن كرم نسبه[٢] .

ثم إذا ما بدأ الصراع المرير بينه وبين بنى سلامان حرص على أن يسجل كل شىء فى شعره : تهديده لهم ، وتربصه بهم ، وأحاديث غاراته عليهم ، ويصف أسلحته التى يستخدمها ، ويتحدث عن رفاق غاراته ، وعن أعدائه وضحاياه ، حتى إذا ما أمسك به أعداؤه وقطعوا يده رثاها بأرجوزة[٣] ، هى مزيج من الحزن والفخر حتى لا يشمت أعداؤه به ، فإذا ما أخذوا يسخرون منه ويسألونه أين يدفنونه رد عليهم بمقطوعة رائعة[٤] ، تظهر فيها قوة نفسه ، فهو لا يحرص على أن يدفن ، وإنما كل ما يوصى به أن يلقوا بجسده إلى الضبع ، رفيقة تشرده .

وإلى جانب هذا التسجيل لأحاديث الصراع بينه وبين بنى سلامان سجل

---

(١) ديوانه المطبوع /٣٧ . والأغانى ٢١/١٣٧ . وابن الأنبارى /١٩٦ . مع اختلاف فى الروايات .

(٢) ديوانه المطبوع /٤٠ ، ٤١ . وديوانه المصور : لوحة رقم ٢ . والأغانى ٢١/١٣٤ ، ١٤٢ .

(٣) ابن حبيب : كتاب المغتالين (مصورة) لوحة رقم ٩٣ ، وديوانه المصور لوحة رقم ٤ ، ٥ والأغانى ٢١/١٣٨ . وديوانه فى الطرائف الأدبية /٤٠ .

(٤) ابن حبيب : كتاب المغتالين (مصورة) لوحة رقم ٩٣ ، ٩٤ وابن الأنبارى : شرح المفضليات /١٩٧ ،وديوانه المصور لوحة رقم ٦ ، ٧ ، والأغانى ٢١/١٣٦ ، وديوانه فى الطرائف الأدبية /٣٦ ، والشعر والشعراء /١٨ ، ١٩ ، والعقد الفريد ١/١١٨ – ١١٩ .

فى شعره جوانب أخرى من حياته : فقره ، وهزاله ، ونعليه الممزقتين ، وثيابه البالية ، وحمله قربة الماء ، وتشرده فى الصحراء بين الوديان المخيفة حيث الجن والآساد ، وغاراته على غير بنى سلامان .

ويوشك ما وصل إلينا من شعر الشنفرى أن يدوركله داخل دائرة التصعلك ، ونقول يوشك لأن تائيته المفضلية تبدأ بمقدمة طويلة من النسيب التقليدى[1] ، يرسم فيها صورة رائعة ممتازة لصاحبته الحبيبة الوفية الجميلة .

ومما يؤسف له أن مجموعة شعر الشنفرى التى بين أيدينا — برغم أنها مجموعة فى ديوان — قليلة ، فإذا أخرجنا منها « لامية العرب » التى رجحنا أنها ليست له ، والتائية المفضلية ، فإن ما يتبقى منها طائفة من المقطوعات والقصائد القصيرة .

وأخص ما يميز أسلوب الشنفرى الفنى تلك الخشونة اللفظية التى تمثل اللغة البدوية الجاهلية أصدق تمثيل ، ثم تلك القوة التعبيرية التى تجعل أسلوبه أسلوباً محكماً لا رخاوة فيه ، هذا إلى جانب ما يمتاز به من صدق التصوير ، والصراحة فى النقل عن الحياة .

---

(١) المفضليات / ١٩٤ — ٢٠٢ ، والأغانى ٢١ / ١٣٨ — ١٣٩ ، وديوانه المصور لوحة رقم ٤٦ ، ٤٧ .